

من صفات عالي الهمة أنه شريف النفس، يعرف قدر نفسه، ويعزها عن مواطن الذلة والهوان، ولقد ضرب لنا السلف الصالح الأمثلة الحية في الحرص على شرف النفس، والبعد بها عن مواطن الذلة والهوان في غير كبر ولا استعلاء، وتبعهم على ذلك ذوو الهمم العالية إلى عصرنا الحاضر.

### شرف نفس عالي الهمة وذكر نماذج من ذلك

فهناك خصائص لعالي الهمة، وأهمها: أن عالي الهمة شريف النفس، يعرف قدر نفسه، ومعرفة قدر النفس وشرفها من المفاهيم التي تختلط على الناس، ويكون الخيط دقيقاً بينها وبين خصال أخرى مذمومة، كالتكبر على خلق الله سبحانه وتعالى، أو الاغترار، كما أن الخيط -أيضاً- دقيق بين التواضع والذلة والهوان، وبين الحسد والمنافسة، وبين صيانة النفس والتكبر، وهكذا، فمن ثم نحتاج إلى التمييز بين هذه الخصال كي لا يكون الموضوع موضع اشتباه فيسيء بعض الناس فهم الكلام وبعد ذلك تطبيقه. ....

### شرف أبي سفيان رضي الله عنه

أثر عن العرب أخبار كثيرة فيها إعظامهم شرف النفس، فمن ذلك أنه حكى العتبي عن أبيه قال: أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة -والجزائر جمع جزور، وهو ما يصلح لأن يذبح من الإبل- وأمر أن ينحرها أعز قرشي، فقدمت و أبو سفيان عروس بهند بنت عتبة، وحينئذ لم يكن يخرج من بيته، فقالت له زوجته: أيها الرجل! لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك! لأن ملك اليمن اشترط أن لا ينحرها إلا أعز رجل في قريش، فهند بنت عتبة كانت من النساء العاليات الهمة، فقالت له: أيها الرجل! لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك. فبماذا أجابها أبو سفيان؟ قال لها: يا هذه! دعي زوجك وما يختاره لنفسه، والله ما نحرها غيري إلا نحرته. فقد كان أهل قريش يعرفون جيداً من هو أعز رجل فيهم، فبقيت الجزائر في عقلها -والعقل: جمع العقال، وهو الحبل الذي يعقل به البعير- حتى خرج أبو سفيان في السابع فنحرها.

### شرف هند بنت عتبة رضي الله عنها

ومن شرف النفس وعلو الهمة ما قالته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان و أم معاوية رضي الله تعالى عنهم أجمعين، حين أتاه نعي يزيد بن أبي سفيان وقال لها بعض المعزين: إنا نرجو أن يكون في معاوية خلف من يزيد يواسونها ويعزونها، فقالت: أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد؟! والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيهم لخرج من أي أعراضها شاء. وقيل لها -أيضاً- و معاوية وليد بين يديها: إن عاش معاوية ساد قومه. فقالت: تكلته إن لم يسد إلا قومه! وهذه العبارة لها معان عظيمة جداً بعيدة المرمى؛ لأن معنى ذلك أن وليدها بضعة لحم لا يظهر عليه أي أمر مما يقطع بأن هذا سيكون إنساناً له شأن، ولكن هذا معناه أنها تنوي أن تربي هذا الولد وتوجهه، حتى إنها لتأنف من أن يسود قومه فقط، بل غضبت حينما قالوا لها: إن عاش معاوية ساد قومه. فقالت: تكلته -أي: الأفضل أن يموت- إن لم يسد إلا قومه. ومعروف أن معاوية من أكثر العرب سيادة وسياسة وحكمة، كما عرف أثناء إمارته في الشام أو أثناء خلافته، يقول معاوية رضي الله عنه: إنني لأنف من أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنوب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي.

### أفخر بيت في الشرف

قال الأحوص في الفخر: ما من مصيبة نكبة أرمى بها إلا تشرفني وترفع شاني وإذا سألت عن الكرام وجدنتي كالشمس لا تخفى بكل مكان وقد زعم صاحب العقد الفريد ذلك الكتاب السيئ أن هذين البيتين أفرح ما قالتها العرب في الفخر، وتصحيحاً لكلام صاحب العقد الفريد فإن أفرح بيت قالتها العرب هو قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه: ويوم بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد فهل يستطيع أحد أن يفخر بأكثر من هذا؟ إنه يستحيل أن إنساناً يفخر بما فخر به حسان بن ثابت والأنصار رضي الله تعالى عنهم.

### شرف عقيل بن علفة المري

ومن أشرف الناس همة عقيل بن علفة المري ، كان أعرابياً يسكن البادية، وكان الخلفاء يريدون مصاهرته، وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده، فقال له: جنبني هجاء ولدك. والهجاء من أهم غير عربية، فمع أنه هو الخليفة أمير المؤمنين لكن كان يأنف من أن يزوجه، وقال له: جنبني هجاء ولدك. يعني الذين أهمهم غير عربية. فعالي الهمة يعرف قدر نفسه من غير كبير ولا عجب ولا غرور، وقد أشرنا إلى أن هناك خطأ دقيقاً بين صيانة النفس وشرف النفس وبين الاغترار والتكبر على خلق الله تبارك وتعالى، فإذا عرف المرء قدر نفسه صانها عن الرذائل، وحفظها من أن تهان، ونزهها عن دنيا الأمور وسفاسفها في السر والعلن، وجنبها مواطن الذل بأن يحملها ما لا تطيق، فمعرفة قدر النفس ليس فقط في جانب النفس الشريفة العالية الهمة التي تستطيع أن تفعل أشياء عظيمة، بل حتى يعرف الإنسان قدر نفسه فلا يضعها في مواضع تذل فيها، بمعنى أن يكلف نفسه ما لا تطيق فيذل ويهان، أو يضعها فيما لا يليق بقدرها، فتبقى نفسه في حصن حصين، وعز منبع، لا تعطي الدنية، ولا ترضى بالنقص، ولا تقنع بالدون.

### شرف نفس نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام

ألم تر إلى شرف نفس الكريم ابن الكريم ابن الكريم نبي الله يوسف بن نبي الله يعقوب بن نبي الله إسحاق بن خليل الرحمن إبراهيم عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام؟! انظر إلى شرف يوسف عليه السلام حينما دعا ربه عز وجل فقال: رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ [يوسف:33]. ولما أتاه رسول الملك بأن يطلق ويخرج من السجن أبي أن يخرج حتى تظهر براءته، فهذا من شرف النفس حينما دعاه رسول الملك للخروج قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ [يوسف:50]. ولا عجب! فإن من يصبر فيما له أن لا يصبر فيه -وهو الخروج من السجن مع توافر الدواعي على الخروج منه- فأولى به أن يصبر فيما يجب عليه أن يصبر فيه من الهم بامرأة العزيز ؛ لأن صبره على الخروج من السجن ليس بواجب عليه، والإنسان إذا لبث في السجن بضع سنين لا شك في أن رغبة نفسه وهواها أن ينطلق من هذا الحبس، ومع ذلك صبر يوسف عليه السلام على هذا الشيء الذي لم يجب عليه أن يصبر فيه، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت مكان يوسف لأجبت الداعي). وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام يحمل على هضم النفس والتواضع منه صلى الله عليه وسلم.

### شرف نفس من سئل حاجة صغيرة

ومن نماذج وأمثلة شرف النفس ومعرفة الإنسان قدر نفسه أنه قال رجل لرجل: لي إليك حويجة -تصغير حاجة- فقال له: اطلب لها رجلاً. يعني: ما دامت حويجة فاطلب لها رجلاً صغيراً حقيراً. وهذا يعد من سوء الأدب، كما يحصل كثيراً من الناس حينما يسأل أحدهم الشيخ فيقول له: عندي سؤال صغير. فهذا ليس من الأدب، فإن كان صغيراً فاطلب له رجلاً صغيراً على قدره. وقيل لآخر: جئناك في حاجة لا ترزوك -أي: لا تنقص مالك، يقال: رزأ ماله: إذا أصاب منه شيئاً فأنقص منه- فقال: هلا طلبتم لها سفاسف الناس؟! وقال أحدهم

لبعض العلماء: لي سؤال صغير. فقال: اطلب له رجلاً صغيراً.

### شرف نفس عبد الله بن جعفر والحسن بن علي رضي الله عنهما

ومن علو الهمة وشرف النفس ما روي عن قطب السخاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقد سألته امرأة فأعطاهها مالاً عظيماً، فقيل له: إنها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير. فقال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أَرْضِي إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وهذا من معرفة قدر النفس في الخير. وسأله سائل بينا كان يهيم بركوب ناقته، فنزل له عنها واما فوقها، وكان عليها أربعة آلاف درهم وسيف من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وعن سعيد بن عبد العزيز أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما سمع رجلاً إلى جنبه في السجود يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بها إليه.

### شرف نفس ابن المبارك

وعن أبي سعيد عن شيخ له قال: رأيت ابن المبارك يعرض يد خادم له، فقلت له: تعرض يد خادمك! فقال الإمام المبارك: كم أمره أن لا يعد الدراهم على السؤال، أقول له: احث لهم حثوا! فقد كان يعاقبه لأنه يأمره دائماً بأن لا يعد الدراهم التي يعطيها للسؤال الذين يسألون الصدقة، وإنما يقول له: احث لهم بكلتا يديك حثوا، وأعطهم عطاءً جزيلاً.

### شرف نفس الأبيوردي

ومن شرف النفس ومعرفة قدرها قول الأبيوردي -وهو من بني أمية من الشخصيات الفذة في التاريخ الإسلامي، ومن أكابر الناس في علو الهمة-: رأت أميمة أطماري وناظرها يعوم في الدمع منهلاً بوادره وما درت أن في أثنائها رجلاً ترخى على الأسد الضاري غدائره أعر في ملتقى أوداجه صيد حمر مناصله بيض عشائره إن رث بردي فليس السيف محتقلاً بالغمد وهو وميض الغرب باتره وهمتي في ضمير الدهر كاملة وسوف يظهر ما تخفي ضمائره والأطمار: جمع طمر، وهو الثوب الخلق البالي، يعني: نظرت إليه أميمة وهي تبكي لراثثة ثيابه وبذاذة هيئته، يقول: (رأت أميمة أطماري وناظرها -يعني عينها- يعوم في الدمع) من كثرة الدموع (منهلاً بوادره) أي: تتسابق قطرات الدموع وراء بعضها. (وما درت أن في أثنائها رجلاً) يعني: ما كان ينبغي لها أن ترثي لحالي بسبب ما علي من الثياب الرثة؛ لأنها لا تدرك أن في داخل هذه الثياب رجلاً (ترخى على الأسد الضاري غدائره) جمع غديرة، وهي: الذؤابة المظفورة من الشعب، ثم قال عن نفسه: (حمر مناصله) جمع منصل، والمنصل هو السيف، يعني: دائماً سيفه ملون باللون الأحمر -لون الدماء- من شدة بأسه في القتال، وقوله: (بيض عشائره). العشائر جمع عشيرة، وعشيرة الرجل بنو أبيه الأقربون وقبيلته، ويقال: فلان أبيض: أي: نقي العرض. فهو يمدح نفسه هنا بقوله: (حمر مناصله بيض عشائره) يعني: أنقياء الأعراض. وقوله: (إن رث بردي) يعني: بلي. والبرد هو الكساء المخطط الذي يلتحف به إن كان عليه ثياب رثة، يقول: (إن رث بردي فليس السيف محتقلاً بالغمد) يعني: السيف لا يهتم ولا يأبه بالغمد فلنفرض أن سيفاً حاداً باتراً قاطعاً صارماً لكنه موجود في جراب أو غمد بالي من الجلد القديم، فهل هذا يضر السيف؟! لا، هذا هو ما يعنيه الشاعر بقوله: إن رث بردي فليس السيف محتقلاً بالغمد وهو وميض الغرب باتره والغرب هو أول كل شيء وحده، يقال: غرب السيف: أي: حد السيف. وغرب السكين وغرب الفأس: الجانب الحاد منهما، ويقال: سيف غرب أي: قاطع حاد. والوميض اللمعان، والباتر القاطع. ثم يقول: وهمتي في ضمير الدهر كاملة وسوف يظهر ما تخفي ضمائره

## شرف نفس الإمام الشافعي

يقول الإمام الجليل المطلبي القرشي الشافعي رحمه الله تعالى: علي ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الوري كانت أعز وأكبرا وما ضر نصل السيف إخلق غمده إذا كان عضباً حيث وجهته برى فهل هذا من الغرور؟! هذا ليس من الغرور، بل هذا من معرفة الإنسان قدر نفسه، وهذا من شرف النفس وصيانتها، ومعنى قوله: (وما ضر نصل السيف إخلق غمده) أي: لا يضر حد السيف الباتر أن يكون الغمد أو الجراب خلقاً وبالياً ورتاً، وقوله: (عضباً) أي: حاداً قاطعاً، (حيث وجهته برى) يعني شق وقطع. والإمام الشافعي رحمه الله تعالى بخبرته العظيمة في النفوس البشرية وطبائعها هو القائل: ما رفعت أحداً فوق منزلته إلا حط مني بمقدار ما رفعت منه. يعني أنه يجب أن يعامل الناس بأقدارهم. ويقول أيضاً رحمه الله تعالى: إذا المشكلات تصدين لي كشفت حقائقها بالنظر لسان كشقشة الأرحبي أو كالحسام اليماني الذكر ولست بامعة في الرجال أسائل هذا وذا ما الخبر لكنني مزرة الأصغرين جلاب خير وفراج شر يريد أنه يعرف قدر نفسه، ويعرف أنه إنسان مؤثر محرك، وليس متحركاً أو منفعلاً لفعل غيره به، أو إمعة يتابع الناس على أقوالهم ولا يدري ما حوله حتى يحتاج إلى أن يسائل هذا وذا: ما الخبر. فهو يعتز بنفسه، أو -بعبارة أصح- يثق بنفسه، فيقول: (إذا المشكلات تصدين لي كشفت حقائقها بالنظر) أي: بالتدبر، (لسان كشقشة الأرحبي)، والشقشة شيء يخرج من فم البعير كالرئة إذا هاج، وتستعمل هذه الكلمة في التعبير عن القدرة على الخطابة والبيان، فيصف لسانه بأنه كشقشة الأرحبي، والأرحبي نسبة إلى قبيلة أرحب، وهي بطن من همدان، وإليها تنسب الإبل الأرحبية، وقوله: (ولست بامعة في الرجال) الإمعة أو الإمع هو الرجل الذي يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت هو على شيء، لكنه يتجول ويتردد بين آراء الرجال، يقول: (ولكنني مزرة الأصغرين) والمزرة هو السيد الشريف والمقدم عند الخصومة والقتال، وقوله: (الأصغرين) يقصد بهما القلب واللسان، (جلاب خير وفراج شر) يعني: يجلب الخير للناس كثيراً، وكذا يدفع عنهم الشرور. ويقول الحريري: وفضيلة الدينار يظهر سرها مع حكه لا من ملاحه نقشه فإذا أراد الإنسان أن يختبر الدينار من الذهب ليعرف هل هو صحيح أو مزيف فإنه يعرف ذلك بأن يلمسه بأصابعه كي يختبر قوة نقشه، فإن كان مزيفاً فإنه تزول، وإن كان جيداً فإنه تثبت، فيقول الحريري: وفضيلة الدينار يظهر سرها من حكه لا من ملاحه نقشه ومن الغباوة أن تعظم جاهلاً لصقال ملبسه ورونق نقشه أو أن تهين مهذباً في نفسه لدروس بزته ورتة فرشته ورقشة هو نقشه، وبزته ملبسه.

## شرف نفس سفيان الثوري

لقد كره بعض العلماء أن يتحول عن بلده مع إيثاره الخمول والانتقاض عن الناس خشية أن يعامله من لا يعرف قدره بما لا يليق به، أي: لم يغترب بعض العلماء خوفاً من أن يعاملوا في الغربية بما لا يليق بهم، أو يهانوا أو يذلوا، مع حرص بعض هؤلاء العلماء على الخمول وعدم الاختلاط الكثير بالناس، ولكنهم أبوا أن يتحولوا عن الأماكن التي يعرفون فيها؛ لأنهم ربما إذا تحولوا إلى غيرها فربما يعاملون بما فيه مذلة، وهذا من معرفة قدر النفس وصيانتها عما لا يليق بها. وأوضح مثال على ذلك الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله تعالى، فالإمام سفيان الثوري كان شديد التواضع، لكن في غير ذل ولا استصغار، ومن كلامه رحمه الله تعالى: أحب أن أكون في موضع لا أعرف ولا أستدل. وذلك لئلا لا يعظمه الناس، لكن في نفس الوقت لا يستدل؛ لأنه إذا كان غير معروف فيمن هو بينهم ومن يعيش حولهم ومن يعيشون حوله فربما تعرض له بعض الغوغاء أو الرعاع بتصرفات فيها إهانة تذله، فخوفاً من ذلك يقول رحمه الله: أحب أن أكون في موضع لا أعرف ولا أستدل. وقال ابن مهدي: سمعت سفيان الثوري يقول: وددت أني أخذت نعلي هذه ثم جلست حيث شئت لا يعرفني أحد. ثم رفع رأسه وقال: بعد أن لا أستدل. فاشترط لنفسه أن لا يستدل. ولشدة حذره من الذلة كان يسكن بين معارفه من الناس الذين يعرفون قدره، قال رحمه الله: لولا أن أستدل لسكنت بين قوم لا يعرفونني. فهل هذا من الكبر؟ ليس هذا من الكبر، بل هذا مما نحن بصدد بيانه، وهو معرفة قدر النفس وشرفها، والدليل على ذلك أنه اشتهر جداً

بالتواضع الشديد، وقد رؤي مرة في مكة وقد كثر الناس من حوله فقال: ضاعت الأمة حين احتيج إلي. وكان يقول: لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم. وكان يقول: لو أنني أعلم أن أحداً يطلب الحديث بنية -يعني: بإخلاص- لأتيته في بيته حتى أحدثه. وكان لا يتصدر مجلساً، ولكنه يجلس بين عامة الناس، حتى قال في ذلك علي بن ثابت: ما رأيت سفيان في صدر مجلس قط، كان يقعد إلى جنب الحائط، ويجمع بين ركبتيه رحمه الله تعالى. ولا يرد على قول الإمام الجليل سفيان الثوري: (لولا أن أستدل لسكنت بين قوم لا يعرفونني)، ما حكاه الحسن قال: كنت مع ابن المبارك يوماً، فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا يعني: حيث لم نعرف ولم نوقر. فهل هذا يتعارض مع كلام سفيان؟! والجواب: كلا، لا يتعارض معه؛ لأن غاية ما في خبر الإمام ابن المبارك رحمه الله تعالى أنه لم يعرف فعومل كسواد الناس، لا أنه ذل، والذي خشي منه الإمام سفيان الثوري هو أن يستدل أو أن يهان، أما هذا فقد عومل بسواسية مع الناس الذين كانوا حوله. وهذا هو ما حرص عليه أويس القرني رحمه الله تعالى حين قال له عمر رضي الله عنه: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي. رواه مسلم، والغبراء هم الضعفاء والصعاليك والأخلاق الذين لا يؤبه لهم.

### شرف نفس الإمام مالك

من أمثلة معرفة قدر النفس وشرفها وصيانتها أنه لما قدم المدينة الخليفة المهدي أقبل الناس عليه مسلمين، فلما أخذوا مجالسهم امتلأت كل الأماكن القريبة من الخليفة، فلما جاء مالك تهاشم بعض الحاضرين وقالوا: اليوم يجلس مالك آخر الناس؛ لأنه لا يوجد مكان للإمام مالك بقرب الخليفة. فلما دنا الإمام مالك ونظر ازدحام الناس وقف وقال: يا أمير المؤمنين! أين يجلس شيخك مالك؟! فناداه المهدي: عندي يا أبا عبد الله. فتخطى الناس حتى وصل إليه، فرفع المهدي ركبته اليمنى ليوسع المكان وأجلسه بجنبه. فانظر إلى تصرفه؛ لأنه رمز للدين وللشريعة وللحديث وللغة وللعلم الشريف، فينبغي أن يصون نفسه. وبهذه العزة أجاب العالم الضريع المحدث أبو معاوية محمد بن خازم هارون الرشيد، فإن محمد بن خازم لما أراد أن يتوضأ أتى هارون الرشيد وصب عليه الماء، ولم يعرف أنه الخليفة، فبعدما فرغ من الوضوء قال له: أنا هارون الرشيد. فقال له: إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين!

### شرف نفس ابن دقيق العيد

من المواقف التي تتم عن معرفة العلماء والأفاضل بشرف أنفسهم أنه لما عزل الإمام ابن دقيق العيد نفسه عن القضاء في بعض المرات -وما أكثر ما عزل نفسه غضباً من بعض الأشياء- طُلب في إحدى المرات ليولى القضاء من جديد، أي: صالحوه، ولما أقبل قادماً وقف له السلطان الملك المنصور تعظيماً، فصار يمشي قليلاً قليلاً، والناس يقولون له: السلطان واقف! أي: أسرع؛ فالسلطان واقف لك. فكان يرد عليهم بأنه يمشي، وظل يمشي بتؤدة وعلى مهل حتى وصل إلى السلطان، وكان السلطان قد أعد له مكاناً كي يجلس فيه، فصعد إلى مجلس السلطان وجلس بجواره، فأخذ السلطان يده وقبلها، فقال له ابن دقيق العيد: تنتفع بهذا.

### شرف نفس سلمان بن غالب السبائي

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختاً أن أبا غالب سلمان بن غالب السبائي المتوفى سنة 436هـ ألف كتاباً في اللغة، وهو كتاب (تلفيح العين)، فوجه إليه أبو الجيش مجاهد العامري صاحب الجزائري ألف دينار أندلسياً ومركوباً وأكسية في مقابل أن يزيد في ترجمة الكتاب أنه مما

ألفه أبو غالب لأبي الجيش مجاهد ، فيريد أن ينال شرف كونه الذي طلب من هذا العالم أن يؤلف الكتاب، فيثبت اسمه على غلاف الكتاب، فرد الدنانير وغيرها وقال: كتاب ألفتة لينتفع به الناس، وأخذ فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري وأصرف الفخر له؟! والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزت الكذب؛ لأنني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب. يقول ابن حزم : فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها.

### شرف نفس الإمام البخاري

عن أبي سعيد بكر بن منير قال: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى الإمام البخاري رحمه الله تعالى أن: احمل إلي كتاب الجامع الصحيح والتاريخ وغيرهما لأسمع منك. فقال الإمام البخاري لرسوله: أنا لا أدل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضرنى في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من الجلوس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة؛ لأنني لا أكتف العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه أجم بلجام من نار) قال: فكان هذا سبب الوحشة بينهما. وقال أبو بكر بن أبي عمرو : كان سبب مفارقة أبي عبد الله البخاري البلد أن خالد بن أحمد خليفة ابن طاهر سأله أن يحضر منزله فيقرأ التاريخ والجامع على أولاده فامتنع من ذلك، وقال لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون قوم آخرين، فاستعان خالد بحريب بن أبي الوراق وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا في مذهبه، فنفاه عن البلد، فدعا الإمام البخاري رحمه الله تعالى عليهم.

### شرف نفس الخطيب البغدادي

جاء في ترجمة الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- أنه دخل عليه بعض العلوية وفي كفه دنانير، فقال للخطيب : فلان يسلم عليك، ويقول لك: اصرف هذه الدنانير في بعض مهماتك. فقال الخطيب : لا حاجة لي فيها. فقطب وجهه وقال: كأنك تستقله -أي: كأنك ترى أن المبلغ قليلاً- ونفص كفه على سجادة الخطيب ، وطرح الدنانير عليها، فقال: هذه ثلاثمائة دينار! يعني أنها مبلغ كبير، فقام الخطيب محمراً وجهه، وأخذ السجادة، وصب الدنانير على الأرض وخرج من المسجد. قال أحد تلامذة الخطيب: ما رأيت مثل عز خروج الخطيب ، وذل ذلك العلوي وهو قاعد على الأرض يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ويجمعها!

### شرف نفس الجرجاني

قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني رحمه الله تعالى مبيناً عزة العالم وشرف نفسه: يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً أرى الناس من دانا هم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما ولم أفض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلماً وما زلت منحازاً بعرضي جانباً من الذل أعتد الصيانة مغنماً وما كل برق لاح لي يستقزني ولا كل من في الأرض أرضاه منعماً إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الضما ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدم أشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزماً ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما ولكن أذلوهم فهان ودينسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

### شرف نفس علي بن أبي الطيب

قال الذهبي في ترجمته للإمام علي بن أبي الطيب : إنه حمل إلى السلطان محمود بن سيكتكين ليسمع وعظه، فلما دخل جلس بلا إذن، وأخذ في رواية الحديث بلا أمر، فتنمر له السلطان؛ إذ لم يقد بالتقاليد التي تتبع عند الدخول على السلطان، حيث جلس مباشرة، وأخذ يتلو الأحاديث! فتنمر له السلطان وأمر غلاماً فلكمه لكمة أطرشته، فعرفه بعض الحاضرين منزلته في الدين والعلم، فاعتذر الملك إليه، وأمر له بمال فامتنع، فقال: يا شيخ! إن للملك طولة، وهو محتاج إلى السياسة، رأيت أنك تعديت الواجب، فاجعلني في حل. يريد أن يستسمحه، فقال: الله بيننا بالمرصاد، وإنما أحضرتني للوعظ وسماع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وللخشوع لا لإقامة قوانين الرياسة. فحجل الملك واعتقه.

### شرف نفس عطاء بن أبي رباح

قال إبراهيم بن إسحاق الحربي : كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسود لامرأة من أهل مكة، فكان أنفه كأنه باقلا -نوع من البقول-، وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه ليستفتي عطاء رحمه الله، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما انقفل من صلاته سأله عن مناسك الحج، وكان يجيب الخليفة وابنيه وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان الخليفة لابنيه: قوما. فقاما، فقال: يا بني! لا تنيا في طلب العلم -أي: لا تكسلا ولا تقصرا في طلب العلم-؛ فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

### شرف نفس الشيخ عز الدين

من لطائف شرف النفس والمبالغة في تنزيها عن الدنية أن الشيخ عز الدين كان إذا قرأ القارئ عليه من كتاب وانتهى إلى آخر باب من أبوابه لا يقف عليه، بل يأمره أن يقرأ من الباب الذي بعده ولو سطرأ، ويقول: ما أشتهي أن أكون ممن يقف على الأبواب. فالإمام عز الدين من شدة الأنفة كره أن يقف عند كلمة الباب؛ لأنها تذكره بالوقوف على الأبواب لأجل سؤال الناس، فكان يكره ذلك، ويجعل القارئ لا يقف على كلمة باب بل يقرأ شيئاً من الباب الجديد ولو سطرأ واحداً، ويقول: ما أشتهي أن أكون ممن يقف على الأبواب.

### شرف نفس عالم فقير

عالم فقير نهى عن السؤال حتى ولو كان فيه نيل العلياء، فمد اليد من العالم ذلة وانكسار نفس، والعالم داعية الحق، فكيف يهين نفسه بالسؤال؟! فالسؤال إضعاف للحق الذي يدعو إليه، فيقول ذلك الفقير الشامخ الأبوي: لا تمدن للعلياء منك يدا حتى تقول لك العلياء هات يدك أي: العلياء هي التي تطلب منك أن تمد يدك، لكن لا تمد أنت يدك إليها! وقيل: أرسل الخليفة بمائة دينار إلى عالم، وقال لغلامه: إن قبل ذلك فأنت حر. فحملها إليه فلم يقبلها العالم، فقال له العبد: قبلها ففي قبولك لها عتقي. فقال: إن كان فيه عتقك ففيه رقي!

### شرف نفس سعيد الحلبي

كان الشيخ سعيد الحلبي رحمه الله تعالى عالم الشام في عصره في درسه ماداً رجليه، فدخل عليه جبار الشام إبراهيم باشا بن محمد علي باشا صاحب مصر، فلم يتحرك له، ولم يقبض رجليه، ولم يبدل قعدته، فتألم الباشا ولكنه كتم ألمه، فلما خرج بعث إليه بصره فيها ألف ليرة ذهبية، فردها الشيخ وقال للرسول الذي جاءه بها: قل

للباشا : إن الذي يمد رجله لا يمد يده.

### شرف نفس زياد بن ظبيان

من شرف النفس عند السلف أنهم كانوا يربون الصغار على معرفة قدر النفس، وأن لا ينزلها المرء منازل الذل والهوان، ومن هذه الأمثلة ما قاله زياد بن ظبيان وهو وجود بنفسه لابنه عبيد الله : ألا أوصي بك الأمير زياداً ؟ فقال: يا أبتى! إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت. يعني بذلك أن في ذلك انتقاصاً من قدره هو. قال الشاعر: إذا ما الحي عاش بعظم ميت فذاك العظم حي وهو ميت وقال معاوية لعمر بن سعيد وهو صبي: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال: إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي. أي: أوصاني بأشياء وكلفني بها ولم يوص بي. قال: وبم أوصى إليك؟! قال: أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه. يعني: أن يتفقد إخوان أبيه وأصدقاء أبيه بأن يحسن إليهم ويصلهم كما كان يفعل أبيه، فلا يغيب عنهم من أبيه إلا جسده فقط، وأما إحسانه فيبقى.

### شرف نفس الشيخين عبد الوهاب الفارسي ومحمد الجراح

كان الشيخ عبد الوهاب الفارسي رحمه الله تعالى يسير يوماً برفقة صديقه الشيخ محمد الجراح فصدمتها سيارة، فسقطا في حفرة وجرحا، ولما علما أن السائق كان سكران صفحا عنه، وامتنعا من مقاضاة هذا السائق أنفة من أن يقفا في موقف واحد مع سكران.

### شرف نفس الأستاذ سيد قطب

التاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه النماذج وهذه الأمثلة التي تبرز لنا هذا المعنى العظيم الجليل، ونحن لا نقصد الاستيعاب، وإنما نقصد ضرب الأمثلة، ونختم الكلام في هذا الفصل بمثال فذ من عصرنا الحديث، لرجل بذل حياته لإعلاء كلمة الله، وهو الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى وأعلى درجته في الشهداء، فإن ذلك الرجل -وما أقل الرجال في هذا العصر- ارتضع منذ طفولته معاني العزة والكرامة والأنفة وشرف النفس حتى عاش حياته سيداً، وغادر الدنيا سيداً رافعاً رأسه، وعاش حياته قطباً، وغادرها أيضاً قطباً في الدعوة والجهاد، وحياته الطويلة حافلة بمواقف العزة والكرامة، لكن نتوقف عند ساعاته الأخيرة وهو يغادر هذه الدنيا الفانية، فقد طلب منه أن يعتذر للطاغية مقابل إطلاق سراحه، فقال: لن أعتذر عن العمل مع الله! وعندما طلب منه كتابة كلمات يسترحم بها عبد الناصر قال: إن إصبع السبابة الذي يشهد الله بالوحدانية في الصلاة يرفض أن يكتب حرفاً يقر به حكم طاغية. وقال أيضاً: لماذا أسترحم؟! إن سجنتم بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجنتم بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل. وفي إحدى الجلسات اقترب منه أحد الضباط وسأله عن معنى كلمة (شهيد)، إشارة له إلى أن مصيرك أن تقتل، فرد عليه رحمه الله تعالى قائلاً: كلمة (شهيد) تعني أنه شهد على أن شريعة الله أعلى عليه من حياته. يقول الشاعر: لعمرك إنني أرى مصرعي ولكن أغد إليه الخطى لعمرك هذا ممات الرجال فمن رام موتاً شريفاً فذا هذا هو عالي الهمة، يعرف قدر نفسه، ويعرف شرف نفسه. وعلى الجانب المقابل خفيف الهمة دائماً يكون دنيء النفس، يشعر بأنه حقير، وأن حجمه ضئيل، لا قدر له، ولا وزن له، وهذا ينعكس في تصرفاته في انعدام ثقته بنفسه، فمعلوم أن الإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه، فمن يراه عظيم القدر يستحي منه أكثر من غيره، فيستحي من العالم أو من الرجل الصالح أكثر مما يستحي من الفاسق أو من الطفل الصغير، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (استح من الله كما تستحي رجلاً من صالحي قومك) أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فالإنسان من العالم لأن العالم أكبر في نفسه من الجاهل، ويستحي من الصالح أكثر من الفاجر، في حين أنه لا يستحي من الحيوانات ولا من الأطفال، ومن كانت نفسه عنده كبيرة، ويشعر بشرف نفسه وأن لها قدراً ووزناً فإنه يحترم نفسه، فإذا خلا بنفسه فإنه لا يقبل على دنيء الأمور وخسائسها؛ لأنه



يستحي من نفسه؛ لأن نفسه عنده كبيرة، كما أنه لا يفعل الدنيايا أمام العالم الصالح أو أمام الشيخ المسن استحياء منهما؛ لأنهما يكبران في نفسه، فكذلك لما كبرت نفسه عنده فإنه يعرف قدرها، فلا يهينها حتى في خلوته. فمن كانت نفسه عنده كبيرة كان استحياءه منها أشد من استحيائه من غيرها، أما خسيس الهمة فإنه يستحي من الناس ولا يستحي من نفسه إذا انفرد عن الناس؛ لأن نفسه أخس عنده من غيره، فهو يستحي من الآخرين لأن لهم قدراً عنده، ولا يستحي من نفسه لأنه ليس لنفسه قدر عنده، وهو يراها أحقر من أن يستحي منها، فمن ثم قال بعض السلف: من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر. وقيل لبعض العباد: من شر الناس؟ قال: من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

### شرف نفس مجاهد عند إعدامه

كان هناك مجاهد إسلامي أرادوا إعدامه بالباطل، فانقطع به الحبل لحظة إعدامه، فقال: كل جاهليتيكم رديئة حتى حبالكم. فانظر إلى الاستعلاء على الباطل حتى في مثل هذه اللحظات.

### الفروق الدقيقة بين شرف النفس وكبر النفس

شرف النفس ومعرفة قدرها من خصائص كبير الهمة، ونحتاج إلى بيان بعض الفروق الدقيقة بين بعض المتضادات من هذه المعاني، فقد تلبس النفس الأمانة بالسوء على العبد أموراً يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها بأمر يبغضها الله عز وجل، فلدقة الخيط أو الحد الفاصل بين هذين الأمرين لا ينجو من هذا التلبس إلا أرباب البصائر ذوو النفوس المطمئنة، وقد عقد الإمام المحقق ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى فصولاً نافعة بين فيها هذه الدقائق النفيسة في كتابه (الروح) نجتزئ منها بما نحتاج في هذا المقام، فقد بين رحمه الله تعالى الفرق بين شرف النفس والتهيه، فشرف النفس هو صيانتها عن الدنيا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال، فيرفع المرء نفسه عن أن يلقبها في ذلك، بخلاف التهيه، فإنه خلق متولداً بين أمرين: إعجاب بنفسه وازدراؤه بغيره، فالشخص الذي يتبني على الناس ويتكبر عليهم هذا الخلق منه ثمرة أمرين اثنين: أولاً: أنه يعجب بنفسه، ثم يزدري ويحتقر الآخرين، فيعجب بنفسه ويزدري غيره، فيتولد بينهما المولود الجنين الذي ينشأ من التزاوج بين الإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين وازدراؤهم، وهو التهيه على خلق الله سبحانه وتعالى. أما شرف النفس فإنه يتولد من خلقين كريمين: الخلق الأول: إعزاز النفس وإكرامها، فهو يعز نفسه ويكرمها. الخلق الثاني: تعظيم مالها وسيدها، فمن تعظيم مالها وربها أن يكون عبده ذليلاً، فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها، وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيوها، وإمداد وليها ومولاها لها، فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله. يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به -بهذا الثوب الغالي النفيس النقي الأبيض- على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاءً على بياضه ونقاؤه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثيابه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره، وهكذا الصائن لقلبه ودينه، تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع، فتراه يهرب من مضان التلوث، ويختلي من الخلق، ويتباعد من مخالطتهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباخين والطباخين ونحوهم، بخلاف صاحب العلو المتكبر، فإنه وإن شابه هذا في تحزره وتجنبه فهو يقصد بالتحرز أن يعلو رقابهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون، أما الكبير فإنه أثر من آثار العجب والبيغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، فرحلت منه العبودية، ونزل عليه المقته، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم بتختر، ومعاملته لهم معاملة الاستنثار لا معاملة الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهياً، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ عليه في الإنعام، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقاً، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلى صغاراً أو

بغضاً. والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفصيلها وعيوب عملها وأفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه. وأما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السفلى في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حض لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه وتعالى يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: (وأوحى الله إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد). سبحانك -اللهم- وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه. ....